صوت من العالم الآخر

للأستاذ نجيب محفوظ

[تتمة ما نشر فى العددين السابقين]

استرق إلى نفسى خاطر أن أنطلق بروحى إلى العالم فانطلقت ، لم تحدث حركة فى الواقع . وإنما كان يكفى أن يتجه فكرى إلى شىء حتى أجده ماثلاً أمامى . بل الواقع أعظم من ذلك ؛ فقد صار بصرى شيئاً عجباً ؛ لا يعصى أمره شىء ، صار قوة خارقة تشق الحجب وتتخطى السدود ، وتنفذ إلى الضمائر والأعماق . بيد أنى — وقد حم الوداع — نازعنى الفكر إلى أهلى . فوجدت نفسى فى دارى . أما الصغار فقد راحوا فى نوم عميق لا يزعجه بكدر . وأما زوجى وأمى فقد افترشتا الأرض ، ولاح فى وجهيهما الهم والغم . لشد ما أعياهما الحزن والبكاء ! وغدا يتضاعف حزنهما عند تشييع التابوت إلى مثواه الأبدى . وقد تغلغل روحى فى فؤاديهما فتحرك رأساهما وتمثلت لهما فى الأحلام ، ورأيت القلبين المحزونين يختفقان فى كد وألم . فيم كان كل هذا الكدر ؟ ! بيد أن شيئاً استرعى بصرى ! رأيت فى سويداء القلبين نقطة بيضاء . فعرفتها — فما عاد يخفى علىّ علم شىء — فهى بذرة النسيان ! آه ... ستكبر هذه النقطة وتنتشر حتى تشمل القلب كله . أجل أدركت هذا حق الإدراك ، ولكن بغير مبالاة فلم أعد أكترث لشىء . وتساءلت مسوقاً بلذة المعرفة متى يمكن أن يحدث هذا ؟ ! فأرتنى عيناى العجيبتان صورة من المستقبل : رأيت أمى تمسك غلاماً بيمناها وتشق طريقها وسط زحام شديد ملوحة بزهرة اللوتس . فعلمت أنها خرجت — أو أنها ستخرج — للمشاركة فى أسعد أعياد قريتنا ، عيد الإلهة إيزيس . كان وجهها متهللاً وكان ابنى يهتف ضاحكاً . ورأيت زوجى تهيئ مائدة — والطعام خير ماتصنع فى دنياها — وتدعو إليها رجلاً أعرفه ، فهو ابن خالها ساو . ونعم الزوج هو . ولو أن ميتاً يسر لسررت لها ، لأن ساو رجل فاضل ، وهو خير من يسعد زوجى ويرعى أبنائى . وانصرفت روحى عن دارى . فرت فى سبيلها بقصر أميرى المحبوب ، فشاهدت عقل الأمير ووجدته متأسفاً لفقدى وهو الذى قدرنى أجل التقدير وجازانى خير الجزاء . ووجدته مشغولاً باختيار خلف لى فقرأت فى ذاكرته اسم المرشح الجديد « آبرع » وكان من مرؤوسى النابهين وإن لم تتصل بيننا أسباب المودة . كل هذا جميل . ولكن إلام أبقى فى قريتى واليوم يستقبل فرعون رسول الحيثيين لتوقيع معاهدة الصلح والسلام ؟ رأيت منف — فى لمح البصر — تعج بجمهورها الحاشد . والقصر فى أروع منظر . وقد اجتمع فى بهو العرش العظيم الملك والرسول والكهنة والنبلاء والقواد . هؤلاء هم سادة الدنيا قد جمعهم مكان واحد . وهذا فرعون المظفر يحادث رسول الحيثيين الجبارة فى جو بالمودة عامر . أما صدر الملك فقد امتلأ احتقاراً ، وترددت بأعماقه هذه العبارة : « لا بد مما ليس منه بد » وأما صدر الرسول فقد بض كراهية ، وتحيرت به هذه الفكرة : « صبراً حتى يموت هذا الملك القوى » . ونشطت عيناى ، فرأيت الوجوه والملابس والقلوب والعقول والبطون . رأيت عالمى الظاهر والباطن بغير حجاب . وتسليت زمناً بتفحص ما فى البطون من طعام فاخر وشراب معتق ، حتى عثرت بمعدة كاهن على بصل وثوم ! وهما محرمان على الكهنة . وتساءلت ترى كيف غافل هذا الرجل الورع أقرانه ودس هذا الطعام فى جوفه ؟ ! ولمحت فى ناحية من معدة أحد النبلاء دبيب المرض الذى أودى بحياتى ، وكان الرجل يحاور قائداً فى سرور وانشراح فقلت له فى نفسى : « على الرحب والسعة ! » . ثم وقع بصرى على الحاكم تيتى الذى اشتهر بالقسوة والبطش حتى ليوالى فرعون النصح له بالاعتدال مع رعايا إقليمه . فنظرت إليه بإمعان . وسرعان ما تكشف لى عن جسم مهزول ، مريض الأعضاء ، لا يفتأ يشكو مرّ الشكوى أسنانه ومفاصله . وكلما ألح عليه الألم تمنى لو يستطيع بتر الفاسد من جسمه . ولذلك تملكته فكرة البتر بقسوة فلا يتردد عن بتر العوج من رعاياه بعنف لا يعرف الرحمة . وإلى جنب تيتى شاهدت الوزير مينا ، ذلك الرجل العنيد الذى حارب فكرة الصلح بكل قواه ، وطالما حرّض على القتال ، وتساءلت ترى ماسرّ عناد هذا الوزير الخطير ؟ ! رأيت عقله نيراً ، ولكن أمعاءه ضعيفة فتستبق فضلات الطعام طويلاً فتلوث دمه فى دورته فيذهب إلى عقله فاسداً ، ويغشى نور أفكاره ، حتى إذا خرجت من فمه كانت ذات شر كبير ! والرجل مقتنع برأيه يراه واضحاً مستقيماً كما أرى نحه مسوداً ملوثاً ! ثم دار بصرى بالصدور يستقرئها خفاياها الكامنة وراء بسمات الثغور . هذا صدر ثقل عليه الملل فهمس لصاحبه : « متى العودة إلى القصر حيث السماع والقيان ؟ ! » وهذا صدر يتوجع قائلاً : « لو مات الرجل بمرضه لكنت الآن قائداً على فرقة الرماح ! » وذاك صدر يقول فى جزع متسائلاً : « متى يقوم الأحمق برحلته التفتيشية فأهرع

إلى زوجه الحسناء المحبوبة ... آه ... » وقال صدر لصاحبه من الأعماق : « لا يدرى إنسان متى يحين الأجل . فلا يجوز بعد اليوم أن أؤخر بناء مقبرتى . أو فما فائدة المال إذاً ؟ ! » وتولت الحيرة صدراً كبيراً فجعل يقول لصاحبه : « قال أخناتون إن الرب هو آتون . وقال حار محب إنه آمون . وهناك قوم يعبدون رع . فلماذا يتركنا الرب فى شقاق ؟ » ولم أواصل الاستطلاع طويلاً فى هذا الحفل الفرعونى الجليل إذ سرعان ما أدركنى الملل . فتحولت عنه ووجدت نفسى مرة أخرى فى الدنيا الواسعة . ومرت أمام ناظرى مشاهد كثيرة من الأرض والسماء ، لمست حقائقها جهرة ، ونفذت إلى صميمها ، حتى وقع البصر على جنين يتكون فى رحم ، فرأيته يكتسى لحماً وعظماً . وشهدت مولده . وجرى البصر معه فى المستقبل فرآه طفلاً وصبياً وغلاماً وشاباً وكهلاً وشيخاً وميتاً . وشاهد ما اعتوره من حادثات وحالات سرور وحزن ورضا وغضب وأمل ويأس وصحة ومرض وحب وملل . رأى ذلك جميعه فى دقيقة من الزمان . حتى كاد يختلط فى أذنى بكاء الميلاد وشهقة الموت ! وغلبتنى على أمرى رغبة جامحة فى اللعب فسارت حيوات أفراد كثيرين من الميلاد إلى الممات . واستلذذت كثيراً وقوع الحالات المتنافرة لا يكاد يفصل بينها زمن ! فهذا وجه يضحك ويقطب ثم يضحك ويقطب عشرات المرات فى جزء من الثانية ! وهذه امرأة تتيه حسناً وتعشق وتتزوج وتحبل وتلد وتهرم وتقبح وتسمج فى لحظة من الزمان ! ووفاء وخيانة لا يفصل بينهما زمن . هذا وغيره مما لا يحيط به حصر جعل الحياة مهزلة . فلو أن ميتاً يضحك لأغرقت فى الضحك . وبدا لى كأنه لا حقيقة فى العالم إلا التغير ! ورغبت نفسى عن مطالعة الأفراد وحيواتهم المجنونة فغابوا عن بصرى . ورنوت إليهم من بعيد جمعاً غفيرا لا يحده شىء . تضاءلت الحجوم وطمست المعالم وانعدمت الفوارق . فصاروا كتلة واحدة . ساكنة صامتة . لا حياة فيها ولا حركة . رحت ألقى البصر فى دهشة وحيرة . حتى ألفت المنظر . فتكشف لى عن جانب جديد كان من قبل خافياً . رأيت ذاك الظلام الساكن يشع نورا شاملاً ؛ فإن الأنوار الخافتة المتهافتة التى تخفق فى كل مخ — على حدة — ضعيفة خابية ، اتصلت فى المجموع الملتحم المتماسك ولاحت نوراً قوياً باهراً . رأيت فى لمحها حقاً باهراً وخيراً صافياً وجمالاً متألقاً فازددت دهشة وحيرة . رباه لشد ما تعانى الروح وتتعذب ولكنها تبدع وتخلق على رغم كل شىء . رباه لقد رأى توتى أموراً جليلة ولير ين أموراً أجل وأخطر . وأيقنت أن ذلك النور الذى بهرنى إن هو إلا نقطة من السماء التى سأعرج إليها . وغضضت البصر . وولت الدنيا ظهرى . فوجدت نفسى فى حجرة التحنيط المقدسة . وقد ملأ روحى سرور إلهى لا يوصف ...

* * *

وانتهت أيام التحنيط السبعون . فجاء الرجال مرة أخرى ، واستخرجوا الجثة من الحوض وأدرجوها فى الأكفان ، وأتوا بالتابوت وقد زانوا غطاءه بصورة جميلة لتوتى الشاب ووضعوا فيه الجثة ، ثم رفعوه على أعناقهم وساروا به إلى الخارج ، فتلقاه المشيعون من الأهل والجيران بالعويل واللطم ، وعاد النواح كأفظع مما كان يوم النعى ، وذهبوا إلى شاطئ النيل ، وهبطوا إلى سفينة كبيرة أقلعت بهم صوب مدينة الأبدية على الشاطئ الغربى ، والتفوا بالتابوت يصوتون وينوحون . قالت أمى : « لا جف لى دمع ، ولا اطمأن لى قلب من بعدك ياتوتى ! » . وصاحت زوجى : « لماذا قضى علىّ بأن أعيش بعدك يا زوجى ! »

وقال حاجب الأمير : « توتى أيها الكاتب المجيد . لقد تركت مكانك شاغراً ! »

ولبثت أنظر بهاتين العينين اللتين تنكرتا لماضيهما ، وكأن سبباً لم يصلنى يوماً بهذه الدنيا ، ولا بهؤلاء الناس . ورست السفينة إلى الشاطئ ، فرفعوا التابوت مرة أخرى ، ومضوا به إلى المقبرة التى أنفقت فى تشييدها جل ثروتى ، وأحلوه موضعه من الحجرة : وفى أثناء ذلك كان جماعة من الكهنة يتلون بعض الآيات من كتاب الموتى ، يلقنوننى التعاليم الهادية من أقوم سبيل ! ثم جعلوا ينسحبون تباعاً حتى خلا القبر ، ولم يعد يسمع من شىء إلا العويل الآتى من بعيد ، وأغلقت الأبواب وهيلت عليها الرمال ، فانقطعت كل صلة بين العالم الذى ودعت ، والدنيا التى أستقبل ...

* * *

ملاحظة : هنا انقطعت الكتابة فى المخطوط الهيرغليفى ، ولعل فترة الانتظار التى أشار إليها الكاتب فى أول كتابته كانت قد انتهت . ولعل رحلته الأبدية كانت قد بدأت ، فشغل بها عن قلمه المحبوب ، وعن كل شىء

نجيب محفوظ